سوسولوجيا الأدب بين النظرية والتطبيق
د. الخامسة علاوي
جامعة قسنطينة - 1

"إنّ الظواهر الجمالية هي وقائع تاريخية ينبغي للتاريخ أن يتكفل بوصفها، ولا بد لعلم الاجتماع من أن يضطلع بمهمة تفسيرها" (هورتيك)
 ما يزال الإنسان-بوصفه جزءاً من نسق أشمل هو الفئة الاجتماعية- يشكّل المحور الذي يدور حوله اهتمام الإنسان ، وهو ما يؤكّد مرة جديدة صحة اتجاه الفلسفة اليونانية بالتركيز على مقولة: (الإنسان عالم صغير) ، لاسيما بعدما أبان العلم أنّ دراسة الإنسان هي خلاصة لدراسة الكون .
 وإذا كان الإنسان في سلوكه المزاجي وارتباطاته الخارجية بالآخرين أو في علاقاته الباطنية مع الكائن الأسمى "الله" موضوع دراسة الباحثين الاجتماعيين ومحطّ اهتماماتهم ، فيكون خليفاً بأن تستأثر ظاهرة الإبداع والخلق الأدبي عنده بنصيب من اهتمامهم وعنايتهم ، يتناسب وأهمية هذه الظاهرة وقيمتها في المجتمع. ألا يعتبر الإبداع الفني في الذروة من قوة الإنسان الخلاقّة وفي الأساس الأعمق اتصالاً بطبيعة الإنسان كإنسان ؟ والخلق الأدبي لا يصوّر وكأنّه يدور في حلقة باطنية منطوية على ذاتها بل ينبثق من ذات عاقلة ، شاعرة ليتوجه إلى الآخرين بما تفيض به هذه الذات، ويُعمّم عليهم هذا الفيض الفكري - الشعوري - ويجعلهم شركاء فيه ، ومن أجل ذلك كانت صفة الاجتماعية لازية بالأدب تماماً كما هي تلازم الإنسان انطلاقاً من طبيعته¹، هذا ولقد أثبت تاريخ الأدب "أن الفن البشري ارتبط منذ القديم بالحياة الاجتماعية وظلّ لصيقاً بهوموم الانسان ومشكلاته الواقعية والوجودية . وفي هذا السياق عبّرت الأسطورة والملحمة والشعر والغناء عن الشروط الاجتماعية والتاريخية للإنسان. ومهما أغرقت الفنون في المثالية ،

¹ - عرموني ، آمال أنطوان : مقدمة كتاب سوسولوجيا الأدب ، ل (روبر اسكاربيت) ،

عويديات للنشر والطباعة ، بيروت ، ط3 ، 1999 ، ص5-6 .

وحلقت بعيدا عن الواقع ، فإنها تنتهي دائما إلى معانقة الهم البشري بكلّ تناقضاته.

وعلى أساس هذه الرؤيا أولى التنظير النقدي عند جميع الأمم أهمية متميزة لعلاقة الفن بالمجتمع ، فقد نظر أفلاطون إلى الشعراء من منطلق آثارهم الايجابية أو السلبية في الحياة الاجتماعية . ومن هنا أبقى في جمهوريته الفاضلة الشعراء الذين يمجدون الآلهة والأبطال، وأخرج سواهم، وأبرز أرسطو الأبعاد الاجتماعية للمحمة والتراجيديا والكوميديا ، واهتمّ النقاد العرب بقضايا الصدق والكذب في الشعر العربي، وما تحمله من دلالات واقعية¹ .

لقد كان لشيوع مقولة (الأديب هو ابن بيئته يتأثر بها كما يؤثر فيها) دلالة صارخة بميزة الشمول حتى بلغت إلى مرتبة البديهيات بل المسلمات التي لا جدال فيها ، فلا غرّو والحالة هذه أن نرى بعض الباحثين يولون هذه الظاهرة الانسانية في صميمها اهتماما يتعدى نطاق الكلام العابر ليصل إلى ميدان الكلام العلمي المسؤول ويجعل من الأدب بركائزه الثلاث:(الأديب ، النتاج الأدبي ، القارئ) موضوعا لفرع تخصصي من فروع السوسولوجيا، التي باتت خلال القرن العشرين تقترح نفسها كمعرفة قادرة على الإحاطة بمختلف الظواهر الاجتماعية وفي جميع تمظهراتها وسياقات انبنائها، بل قادرة على مواجهة مختلف تضاريس المجتمع بآليات الدرس والتحليل، هذا الفرع التخصصي هو علم اجتماع الأدب أو سوسولوجيا الأدب المنشغل بكل ماله علاقة بالإبداع الأدبي سواء في علاقته المفترضة مع المجتمع أو في تحليل وتتبع شروط انتاجه وإعادة انتاجه للأنساق المجتمعية، ومؤكّدا بأنّ الأدب

¹ - شعلان ، عبد الوهاب : المنهج الاجتماعي وتحولاته- من سلطة الايديولوجيا إلى فضاء النص ، عالم الكتب الحديث / جدارا للكتاب العالمي ، الأردن ، ط 1 ، 2008 ، ص 1 (المقدمة) .

والأديب يوجدان على خط التماس مع الفعاليات والظواهر والحركات التي تعتمل في رحاب المجتمع وهو ما يجعل الجزم بأن ليس هناك أدب منفصل عن شروط المجتمع الذي يتأسس فيه.***

وللعلم فقد "بدأت ملامح المنهج الاجتماعي في التبليور منذ القرن التاسع عشر، مع ظهور الفكر الوضعي - العقلاني، وتراجع المثالية والفكر الأسطوري . وفي ظل هذه الأجواء برزت مدام دوستايل في كتابها الأدب وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية"¹، الذي حاولت فيه دراسة الظاهرة الأدبية بوصفها ظاهرة اجتماعية ، مؤكدة أنّ أدب أي مجتمع من المجتمعات ينسجم مع المعتقدات الاجتماعية والسياسية السائدة في ذلك المجتمع ، ومهمة الأديب القيام برصد التغيرات الطارئة على بنية المجتمع ونظمه الاجتماعية المختلفة، مستعينة في معظم طروحات المؤلف بمفاهيم مفكري القرن الثامن عشر من أمثال: مونتيسكيو (Montesquieu) ،فيكو سميث ميلر وسورل (Sorel) ... وغيرهم ، هؤلاء الذين اهتموا في دراستهم للظواهر الاجتماعية بردها إلى سياقها التاريخي لتحديد الأسباب الدقيقة لظهورها .

كما" تأثرت مدام دي ستايل أيضا بأداء معاصريها أمثال: هيردر (Herder) ، الذي أشار إلى أنّ هناك علاقة بين الثقافة والأساس المادي للمجتمع ، وهذه العلاقة تساعدنا على فهم الوظيفة الفعلية للوعي الإنساني ، وأوضح هيردر أثر المناخ والشخصية القومية على نمو وتطور الأدب من خلال مناقشته للعلاقة بين البيئة والأدب ، حيث يقول: أن كل عمل أدبي يضرب بجذوره في بيئة اجتماعية وجغرافية معينة، ويؤدي وظائف محددة بها ، ولذلك لا حاجة إلى أي حكم قيمي ، فكلّ شيء وُجد لأنه يجب أن يوجد.

¹ - نفسه ، نفسها

فالتساؤل الأساسي عند هيردر هو لماذا ينمو و يتطور أدب ما في بيئة جغرافية دون أخرى ؟ وفي ثنايا إجابته على هذا التساؤل أكد على أثر العوامل الجغرافية كمحدد أساسي للاختلافات الأدبية بين المجتمعات، ولم يقتصر هيردر على البيئة الجغرافية فحسب كمحدد أساسي للاختلافات الأدبية، ولكنه تعرض لمجموعة من المحددات الأخرى مثل العرق والعادات والظروف السياسية ولم يتجاهل هيردر أهمية التحليلات التاريخية، فجاءت تحليلاته قريبة من التحليلات السوسولوجية¹.

وقد بدت استفادة مدام دي ستايل من أطروحات هيردر واضحة في كتابها السالف الذكر، الذي حظي باهتمام الكثير من علماء السوسولوجيا، بل وعدّ من الأعمال الممهدة لظهور سوسولوجيا الأدب . كما يجب أن لا نغفل آراء الفيلسوف الألماني هيجل ومحاضراته التي ألقاها في عام 1822، والتي تحدث فيها عن الآداب العالمية ، مؤكداً أنّ هذه الآداب تعبر عن مجتمعاتها، حتى أننا يمكن فهم هذه المجتمعات من خلال الدراسة الواعية لأدائها ، كما أوضح أنّ التغيرات الطارئة على الأعمال الأدبية كانت نتيجة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المجتمع في تلك الحقبة ، فتحول المجتمع من مجتمع تقليدي إلى مجتمع صناعي صحبه تحول في الأعمال الأدبية ، إذ ظهرت الرواية التي يعدّها هيجل شكلا من أشكال الوعي تتميز بسيطرة الاتجاه العقلي وبنظرة خاصة إلى العالم ، وهو ما جعلها تتميز عن غيرها من الأجناس الأدبية في دقة التعبير ومحاكاة الواقع.

¹ - البديوي ، محمد علي : علم اجتماع الأدب - النظرية والمنهج والموضوع ، دار المعرفة

الجامعية، القاهرة ، د.ط ، 2009 ، ص 48 .

كما أكد هيجل على أن مسؤولية الشاعر في المجتمع التقليدي مسؤولية مزدوجة ، فهو من ناحية يقدّم لنا المجتمع على هيئة صورة منتزعة من الحياة اليومية ، دالة على وعي ناقلها بدقائق الأمور ، وفي الآن نفسه دالة على امتلاكه فنيات التشكيل الجمالي لهذه الصورة . وهو من ناحية ثانية يضيئ للمجتمع طريقه نحو المستقبل الزاهر ، وذلك حين يكبح جماح نزواته، أو يستثير حميته¹.

وهكذا تواصلت التصورات والمفاهيم حول الأدب و المجتمع إلى غاية انتعاش حركة النقد الأدبي ، وما رافق ذلك من تعدد مقارباتي في تناول وتحليل وتدوق الأدب ، حيث كُثفت جُلّ الجهود و العلوم و المعارف من أجل قراءة وتحليل النصوص الأدبية ، بدءاً من الأدب ذاته في إطار فروعها التي تعني بالنقد والتحليل الأدبي، إلى اللسانيات والسيميولوجيا وعلم النفس والأنثروبولوجيا والتاريخ.

في هذا الإطار وجدت السوسيولوجيا نفسها مطالبة بالإجابة عن أسئلة العمل الأدبي في علاقته مع الشروط الاجتماعية مستعملة براديجمها الخاص ، وحينها ظهرت سوسيولوجيا الأدب كفرع تخصصي غايته تدشين مداخل جديدة لقراءة المجتمع من خلال منتوجه الأدبي، وهو ما يفيد علمياً وعملياً في فهم وتفهم الأنساق المجتمعية.

وهي لا تقترح نفسها كبديل عن الدراسات والمناهج الأدبية التي تعنى بتفسير الأدب ، بل تعلن عن ذاتها كمعرفة تحليلية تشتغل على العلاقات الممكنة التي يدشنها الأدب مع أبنية المجتمع وحركياته، تفكك المتن الأدبي وتساؤل شروط إنتاجه في الأنساق والوضعيات الاجتماعية المختلفة باعتماد

¹ - نفسه ، ص ص 49-51 .

مقاربات متباينة، وغايتها المثلى الوصول إلى تفهم علمي للأسباب المؤدية إلى هذا الإنتاج في موضوعه و قيمته وممارسته، لهذا تصير نتائج هذا التفهم مفيدة أيضا في قراءة مجموع النسق العام الذي يُنتج فيه هذا العمل الأدبي، ما دام هذا الأخير عاكسا بشكل أو بآخر لما يمور في رحاب هذا النسق المجتمعي.

إن سوسيولوجيا الأدب تلوح في بعض الأحيان كمعرفة مشغولة فقط بإنتاج الأدب و نشره و استهلاكه ، وفي مرات أخرى تتقدم كنموذج علمي للنقد الأدبي، خصوصا مع موجة النقد السوسيولوجي التي استحوذت على النقاش السياسي خلال منتصف القرن الماضي و ما بعده ، ولكنها في الواقع تجمع في مطبخها الداخلي عددا من المقاربات التي تحلل مختلف الظواهر الأدبية داخل النص وخارجه ، بين الكاتب والمتلقي ، الأدب عموما والمجتمع، وهذا التقابل الموضوعاتي هو الذي يكشف عن الحدود المعرفية لسوسيولوجيا الأدب.

وللعلم إن سوسيولوجيا الأدب تتوجه إلى الأدب بالدرس والتحليل مرة كموضوع ،ومرة أخرى كقيمة وثالثة كممارسة ، ووفقا لهذا التقسيم تعنى المقاربة الموضوعية بدراسة الأدب في اتصاله بكل الوسائط التكنولوجية والسيميولوجية والجمالية والمؤسسية التي تتيح الوصول إلى النصوص الأدبية ، أما المقاربة القيمية فهي تتمحور حول سؤال مركزي وهو: " ما الذي يجعل العمل أدبيا ؟" مع الأخذ بعين الاعتبار مختلف المؤشرات التي تتفرع عن هذا السؤال ، في حين نجد المقاربة الممارساتية تركز على الجانب الاستهلاكي للأدب¹.

الاتجاهات النظرية في ميدان سوسيولوجيا الأدب :

¹ - العطري ، عبد الرحيم : مقدمة في سوسيولوجيا الأدب ، جريدة الحوار المتمدن ، العدد

1716 ، بتاريخ 2006/10/27 . [مناح على الشبكة].

على درب التعرف على المسارات والاتجاهات الخاصة بسوسولوجيا الأدب محاولة لتصنيفها إلى مدارس أساسية نسجل ما قام به جون هول في كتابه "علم اجتماع الأدب" ، حيث صنّف هذه الاتجاهات إلى خمس مدارس : هي المدرسة الماركسية ، المدرسة الانجليزية ، مدرسة الفن الشعبي ، المدرسة البنوية والمدرسة التفسيرية¹ ، ولأن المدرسة الماركسية "شكلت أرضية تنامت عليها معالم تيار نقدي ضخم ما زال حتى يومنا هذا يحتل موقعه البارز على ساحة النقد الغربي المعاصر"² فقد رأينا أن نركّز حديثنا على هذه المدرسة بتوجهاتها المختلفة معرجين على البنوية والبنوية التكوينية ومدرسة فرانكفورت وجهود "بيار زيمّا" في التأسيس لسوسولوجيا النص ، باعتبارهم جميعاً كانت لهم إسهامات حيثية في التفسير السوسولوجي للعمل الفني بهدف العثور على المسار الذي عبّر فيه الواقع التاريخي والاجتماعي عن نفسه بواسطة الحساسية الفردية للمبدع في النتاج الأدبي.

1- المدرسة الماركسية

"إذا كانت مدام دي ستايل هي أول من حاول تأويل العلاقة بين الأدب والمجتمع من وجهة نظر شخصية مثالية ، فإنّ كارل ماركس هو أول من أعطى تفسيراً موضوعياً للعلاقة بين الأدب والمجتمع ، وعيّن لها موضعاً داخل مجموعة العلوم الاجتماعية ، واعتبر أنّ الأدب واقعة اجتماعية تاريخية نسبية ، وأنّ الكاتب يعبر في أعماله عن وجهة نظر الطبقة التي ينتمي إليها بوعي أو

¹ - البديوي ، محمد علي : المرجع السابق ، ص 121.

² - الرويلي ، ميجان - البازعي ، سعد : دليل الناقد الأدبي ، مكتبة الملك فهد الوطنية ،

ط 1 ، 1995 ، ص 154 .

بغير وعي"¹ ، ثم راح يؤكّد "على أنّ الطبقة التي تسيطر على وسائل الإنتاج المادي هي التي تسيطر في الوقت نفسه على وسائل الإنتاج الفكري. فالطبقات الحاكمة تعد الفن والأدب احتكارا لها، ولكن التناقضات والصراعات التي تتحكم في البناء التحتي للمجتمع ينعكس أثرها على البناء الفوقي ، والأدب والفن ليس [كذا] سماوات علوية بعيدة عن التأثير بما يحدث من اضطرابات في البناء الاجتماعي ولكنهما أرض المعركة، وفيهما تتواجه الأيديولوجيات المتعارضة ، وتقع المبارزات التي لا رحمة فيها بين القديم والجديد ، فتسقط الأفكار الضعيفة وتموت، وتظهر الأفكار الأقوى وتسود"². وهذا ما يجعلنا نؤكد أنّ المحاولة الماركسية كانت أبرز المحاولات في ميدان الدراسة السوسيولوجية للأدب لما قدمته من إسهامات بارزة محمّلة بالمقولات الأساسية لكل من أنجلز وماركس والتي يمكن حصرها في النقاط التالية :

- 1- يعد الأدب شكلا أيديولوجيا وعنصرا أساسيا من العناصر الجوهرية المكونة للبناء الفوقي للمجتمع، وهو لا يتوانى عن عكس جوانب شتى من البناء التحتي .
- 2- تعدّ مناقشة الواقع الأدبي أساسا للأحكام النقدية .
- 3- النظر الى الأعمال الأدبية على أنها فن إبداعى تاريخي وجدلي .

وما هو جدير بالذكر أن الماركسية "طرحت نفسها بديلا فلسفيا ونقديا، فضلا عن الناحية الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية، وهذا ما جعلها في صراع دائم مع باقي التيارات الأدبية والنقدية، وإن حصل - في بعض الأحيان -

¹ - حجازي ، سمير سعيد : قضايا النقد الأدبي المعاصر ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، ط1، 2007 ، ص50- 51 .

² - البديوي ، محمد علي : المرجع السابق ، ص149 .

حوار خصب بينها وبين هذه الاتجاهات انتهى إلى ضرب من التوفيق أثرى النظرية ، وفتح أمامها آفاق التجدد والانبعاث¹ .

وكغيرها من التيارات تتراوح الماركسية بين اتجاهات متعارضة يبرز من بينها اتجاهان : "أحدهما نقد غارق في الأيديولوجية ، متعصب للتفسير الاقتصادي للثقافة ، يطالب الأدب بالانسجام مع الرؤية الماركسية الحزبية لحركة المجتمع بما يتضمنه من صراع طبقي ويهاجم ما خالف ذلك ، والآخر نقد معتدل يعترف باحتفاظ الأدب بقيمة فنية تتجاوزه الأيديولوجيا البرجوازية إلى حد يمكنه فيه أن يعكس الواقع الموضوعي لعصره"² ، وبين هذا وذاك حاول لوي ألتوسير أن يجد لنفسه مخرجا جديدا تباعدت فيه آراؤه تباعدا ملحوظا عن الموقف الماركسي التقليدي، راح فيه "يرفض معالجة الفن بوصفه شكلا من أشكال الايديولوجيا، ويضع الفن فيما كتبه بعنوان (رسالة في الفن)، في مكان يتوسط ما بين الايديولوجيا والمعرفة، فالعمل الأدبي العظيم لا يزودنا بفهم ذهني عن الواقع، ولكنه في الوقت ذاته ليس مجرد تعبير عن أيديولوجية طبقة من الطبقات. ويستخدم ألتوسير الفكرة التي طرحها أنجلز في حديثه عن بلزاك ليؤكد أنّ الفن يجعلنا نرى من بعيد الايديولوجيا التي يولد منها، والتي ينغمس فيها، والتي ينفصل عنها (...)، والتي يطمح إليها. ويعرّف ألتوسير الايديولوجيا بأنها "تصوير العلاقة الخيالية التي تربط الأفراد بالأوضاع الفعلية لوجودهم" فالوعي الخيالي يساعد على أن يضيفي على العالم معنى، ولكنه يحجب علاقتنا الفعلية ويكبتها، فأيديولوجيا الحرية على سبيل المثال تشجّع الإيمان بحرية كل البشر بما فيهم العمال، ولكنها تحجب علاقتهم الفعلية

¹ - شعلان ، عبد الوهاب : المنهج الاجتماعي وتحولاته ، ص 20 .

² - الرويلي ، ميجانن / البازعي ، سعد : دليل الناقد الأدبي ، 154 .

بالاقتصاد الرأسمالي الليبرالي، وهكذا فإنّ الطبقات المستغلة تقبل النسق المهيمن للأيدولوجيا بوصفه الوضع الطبيعي للأمور، مما يؤدي إلى تأمين مصالح الطبقة المستغلة. أما الفن فإنه يحقق نوعاً من التراجع (التباعد الخيالي) عن الأيدولوجيا نفسها التي تغذيه، مما يجعل العمل الأدبي العظيم قادراً على تجاوز أيدولوجيا الكاتب الذي كتبه¹، وكما هو واضح فإنّ لكتاب بيير ماشري ("نظرية في الانتاج الأدبي" (1966) أثره في صقل آراء ألتوسير في الفن والأيدولوجيا كما يؤكد ذلك سلدن ، هذا الكتاب الذي ينص فيه ماشري على أنّه على الرغم من أنّ الكاتب الواقعي يقصد إلى توحيد كل العناصر في النص، فإنّ ما يجري في العملية النصية يفرض بالضرورة إلى ثغرات وانقطاعات تناظر عدم اتساق الخطاب الأيدولوجي الذي تستخدمه . ذلك لأنك إذا أردت أن تقول شيئاً فلا بد من أن تصمت عن أشياء غيره². وتتحصّر مهمة الناقد عنده في " إظهار الكيفية التي تتماسك بها كل أجزاء العمل، أو إحداث التناغم الذي يخفي أي تناقض في النص، بل إنّ مهمته أشبه بمهمة المحلل النفسي؛ إذ عليه أن يركز اهتمامه على (لا شعور النص) أي على ما يقال وما هو مكبوت بالضرورة³. ولقد أثر ألتوسير، هذا الفيلسوف الفرنسي، تأثيراً بارزاً في النظرية الأدبية الماركسية خصوصاً في فرنسا وبريطانيا، وذلك في إنجازه الفكري الذي يرتبط ارتباطاً واضحاً بالبنوية وما بعد البنوية⁴ يتعذر علينا بسطها في هذا المقام. ومما تقدم ندرك أن الخطاب الماركسي لم يثبت على

¹ - سلدن ، رامان : . النظرية الأدبية المعاصرة ، تر. جابر عصفور ، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، 1998 ، ص 69 .

² - نفسه ، ص 70 .

³ - نفسه ، نفسها .

⁴ - نفسه ، ص 68-69 .

حاله الأولى بل أُدخِلت على مقولاته تعديلات ساهمت إلى حد بعيد في تأصيله ورواجه، وفيما يلي بيان ذلك.

- أثر جورج لوكاتش في تحول الخطاب الماركسي

ما كان للماركسية أن تحظى بكل ذاك الرواج والتأثير العميق في مسار الفكر الانساني لولا مساهمة ثلة من المنظرين والفلاسفة من أمثال: بليخانوف، غارودي، ألتوسير، وجورج لوكاتش، هذا الأخير الذي عُرف طيلة القرن العشرين بريادته للتفكير النظري الماركسي، كما عُرف بالتنوع والخصوبة والعمق في مساره الفكري؛ حيث تقاسمت حياته الفكرية اتجاهات عدة، منها الكانطية والهيغلية والماركسية.

فهذا لوكاتش قد عمد إلى تطوير النظرة الواقعية إلى الأدب تطورا ينطوي على قدر كبير من العمق، وكان يميل في ذلك إلى الجانب الهيغلي من الفكر الماركسي، إذ نظر إلى الأعمال الأدبية بوصفها انعكاسا لنسق يتكشف تدريجيا، وذهب إلى أنّ العمل الأدبي الواقعي لا بد أن يكشف عن نمط التناقضات الذي تكمن وراء اجتماعي معين، كما ربط أشكال الوعي كافة بالبنية الاقتصادية المحددة لها، كاشفا عن العلاقة الجدلية بين دلالات الأعمال الإبداعية الكبرى ودلالات البنيات الاجتماعية، وذلك من خلال كتاباته عن أعمال بلزاك وإيميل زولا. كما ظلت نظرتة الماركسية في الحاحها على الطبيعة المادية والتاريخية لبنية المجتمع.

ولقد استلهم لوكاتش فكرة الرواية انعكاسا للواقع من النظرة الواقعية القديمة، و"استخدم مصطلح الانعكاس استخداما متميزا يبين عن عمله كله"¹، إذ "لا يعني الانعكاس عنده التصوير الفوتوغرافي للواقع وإنما هو تشكيل

¹ - نفسه، ص 55.

للنمطي كما يقول بيير زيم¹ أي "تشكيل بنية ذهنية تصاغ في كلمات، وعادة ما يكون لدى الناس انعكاس للواقع، أعني وعيا لا يقتصر على الموضوعات الخارجية، بل يشمل الطبيعة الانسانية والعلاقات الاجتماعية. ويقول لوكاتش إن الانعكاس يمكن أن يكون عينيا بدرجات متفاوتة، فالرواية يمكن أن تقود القارئ نحو استبصار أكثر عينية بالواقع يتجاوز الإدراك العادي الشائع للأشياء، فالعمل الأدبي لا يعكس الظواهر الفردية المنعزلة بل يعكس العملية المتكاملة للحياة. ومع ذلك يظل القارئ دائما على وعي بأنّ العمل الأدبي ليس الواقع نفسه، ولكن شكل خاص من أشكال انعكاسه، ومعنى ذلك أنّ الانعكاس الصحيح للواقع يتضمن أكثر من مجرد وصف المظاهر الخارجية، فيما يرى لوكاتش²، ويعلّق سلدن على نظرة لوكاتش هذه بقوله: "وتلك نظرة تلفت انتباهنا بما تتطوي عليه من هدم لأسس النزعة الطبيعية ونزعة الحدائثة* في الوقت

¹ - الفرطوسي ، عبد الهادي : تطور المناهج الاجتماعية في النقد الأدبي ، متاح على الشبكة.

² - النظرية الأدبية المعاصرة ، ص 55-56 .

* تشير هنا إلى موقف لوكاتش من كتاب الحدائثة مؤكدين أنه كان "يرى أنّ الفشل في إدراك الوجود الانساني من حيث هو جزء من مناخ تاريخي متحرك ، هو الداء المتفشي في نزعة الحدائثة المعاصرة كلّها ، كما في أعمال كتاب مثل كافكا وبيكيت وفوكنز وأشباههم فهؤلاء الأدباء شغلوا أنفسهم بالتجريب الشكلي أي بالمونتاج والمنولوج الداخلي وتقنية تيار الوعي واستخدام الريبورتاج واليوميات إلى آخر كل ألوان البراعة الفنية الشكلية التي كانت نتيجة اهتمام ضيق بالانطباعات الذاتية ؛اهتمام ناتج بدوره عن النزعة الفردية المفرطة للرأسمالية المتأخرة ، وبدل أن يقدم هؤلاء واقعية موضوعية فإنهم قدموا رؤية قلقة عصابية عن العالم ،واختزلوا اكتمال التاريخ وعملياته في تاريخ داخلي مقبض لوجود عبثي . وفي ذلك كلّه انجذاب للإحساس بالواقع ، يتضاد مع النظرة الحيوية التطورية إلى المجتمع ، تلك التي كانت موجودة في القرن التاسع عشر عند رواد الواقعية الاشتراكية ممن يحققون ما يسميه

نفسه، وتنم عن رفض لوكاتش للتمثيل الفوتوغرافي البحت للواقع، ويقدم بدلا من ذلك وصف للعمل الفني الذي يمنحنا الاحساس بالضرورة الفنية للصور التي يقدمها¹ ثم راح سلدن يركّز على مواصفات هذه الصور عند لوكاتش قائلا: "وتتسم هذه الصور بوحدة شاملة مكثفة توازي الوحدة الشاملة الممتدة للعالم نفسه"²، مؤكدا أن "ليس الواقع مجرد تدفق أو تصادم آلي للجزئيات، بل إنّ له نظاما ينقله الروائي في شكل مكثف والكاتب لا يفرض نظاما على العالم، ولكنه يزود القارئ بصورة لثراء الحياة وتعقدها، صورة ينبثق منها احساس بالنظام الذي ينطوي عليه تعقد التجربة المعيشية وتعدد جوانبها. ولن يتحقق هذا العمل إلا إذا تحققت وحدة شكلية كلية تضم جوانب التناقض والتوتر في الوجود الاجتماعي كافة"³.

والحق أنّ هذه المقولات الأساسية والمواقف للوكاتش لم تقف عند هذا الحد بل أخذت أبعادا أخرى مرة على يد تلميذه لوسيان غولدمان كما سنتبين ذلك في الخطوة الموالية، وأخرى على يديه وذلك حين حوّل النظرة إلى الرواية من مجرد تنوع كلامي اجتماعي منظم، تتباين فيه أصوات فردية متعددة عند باختين، إلى أطروحته الناصية على أن الرواية ليست إلا ملحمة البرجوازية متبنيا مقولات هيغل بخصوص علاقة نشأة الرواية وتطورها بظهور المجتمع

(بالواقعية النقدية) . ومن الواضح أنّ لوكاتش لم يستطع تقبل فكرة أنّ أدباء الحداثة يحققون نوعا من الواقعية كما رفض الاعتراف بالامكانات الأدبية للكتابة الحداثيّة "راجع : النظرية الأدبية المعاصرة ، ص57- 58 ، ص61- 62 .

¹ - نفسه ، ص56 .

² - نفسه ، نفسها

³ - نفسه ، نفسها .

البرجوازي، بل وساعيا إلى تأسيس جمالية روائية، لا تكتفي بدراسة المضامين، بل تتعداها معطية أهمية كبرى للأشكال الأدبية.

وانطلاقا من مفاهيمه السوسولوجية أقام لوكانتش تصنيفا للرواية الأوربية في القرن التاسع عشر حيث حصرها في ثلاثة أنماط أساسية¹ هي:
أ/ رواية المثالية التجريدية المتميزة بفعالية البطل ووعيه القاصر بالقياس إلى تعقد العالم (رواية دون كيشوت - الأحمر والأسود).

ب/ الرواية النفسية أو السيكولوجية وهي الرواية التي اتجهت نحو تحليل الحياة الداخلية، التي تميّزت بسلبية البطل ووعيه الذي كان أوسع من أن يرضى عما يمكن لعالم الاتفاق أن يقدمه له.

ج/ الرواية التربوية التي تكتمل بتجديد ذاتي لا يمكن اعتباره، مع كونه تخليا عن البحث الاشكالي، قبولا بعالم الاتفاق ولا هجرا لسلم القيم الضمني.
وعلى الرغم من أنّ الأفكار النظرية التي طرحها لوكانتش، بقيت في أغلب الأحيان مؤجلة لافتقادها للعنصر الإجرائي التنظيمي، وقد بدا ذلك جليا في مجال النقد الروائي، إلا أن هذا الإرث النظري شكّل منعطفًا حقيقيا هاما في تاريخ الرواية الغربية عامة، وفي سوسولوجيا الأدب خاصة لاسيما وأنّ تلميذه الناقد الروماني لوسيان غولدمان تكفل بتعويض هذا النقص بعد استيعابه لإرث أستاذه، "وصاغ بدوره مقولات جعلها أساسا لدراسة الأعمال الروائية؛ قصد الوصول إلى الكشف عن التصورات الفكرية التي تحملها، وكذا علاقتها ببيئة تكوينها، وهذا وفق منهجه الجديد (البنوية التكوينية)، والمتميز بشكل كبير،

¹ - غولدمان ، لوسيان : مقدمات في سوسولوجيا الرواية ، تر. بدر الدين عرودكي ، دار

الحوار للنشر والتوزيع - سوريا ، ط 1 ، 1993 ، ص 15-16 .

عن المناهج السوسولوجية السابقة في دراسة الانتاج الأدبي كما سيتبين ذلك في السطور اللاحقة .

2- البنيوية التكوينية عند غولدمان:

تعد البنيوية التكوينية أو التوليدية فرعاً من فروع البنيوية، نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية وأسس الفكر الجدلي الماركسي في تركيزه على التعبير المادي الواقعي للتاريخ والفكر والثقافة عموماً. ومن أجل ذلك اعتبرت البنيوية التكوينية بكونها "فلسفة متكاملة ذات منظور نقدي يتجاوز (سلبية) النقد إلى استشراف (إيجابية) تتسجها الجدلية القائمة بين الذات والموضوع، تلك الجدلية الممثلة لجوهر كل علم تكويني. فداخل كل بنية توجد بذرة نافية لها، بذرة تؤشر على ما سيكونه، أي بداية تبين يؤسس لبنيات جديدة ويلغي البنيات القائمة. والبنيوية التكوينية، في اعتبارها لكلية الظواهر وترباطها، تنطلق من نقد الواقع القائم الناقص، من زاوية استحضر ما يتكون عبر الجدلية المحايثة، وهذا ما يفسح المجال وبخاصة عند لوسيان غولدمان ومنهجه البنيوي التكويني أمام الذات (الجماعية) في الفعل والتفكير، باعتبارها تتوفر على حد أعلى من الوعي الممكن يشرطها ويحدد قدراتها على التأثير والتغيير"¹، هذا الوعي القائم/الممكن هو الذي يؤسس لرؤية العالم* (La vision du monde)، تلك

¹ - تأليف جماعي : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، المؤسسة العربية المتحدة ش.م.، ص 8
* - كان لوجوء غولدمان ، على غرار لوكانش ، إلى استخدام مفهوم النظرة إلى العالم (وهو مفهوم مثالي أصلاً) وسيلة للتخلص من النظرة الآلية التي تقول بالانعكاس . غير أن ذلك يثير بعض المفارقات مادام مفهوم النظرة إلى العالم كما يستخدمه غولدمان لم يجئ من علم الجمال وإنما من سوسولوجيا المعرفة راجع : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، ص 115 .

التي تشكّل ينبوع المتجذر لتفكير غولدمان؛ إذ "بها يستطيع الكاتب الفذ أن يخلق عالماً متخيلاً في غاية الانسجام ، حيث تطابق بنياته البنيات التي تنزع إليها الجماعة ، فيعي أفرادها ما كانوا يفكرون فيه أو يحسونه أو يفعلونه دون أن يعرفوا دلالاته معرفة موضوعية"¹.

وعموماً "تنطلق البنيوية التكوينية من الفرضية القائلة أنّ كل سلوك إنساني هو محاولة إعطاء جواب دلالي على موقف خاص ينزع إلى إيجاد توازن بين فاعل الفعل والموضوع الذي يتناوله ، أي العالم المحيط ، ويحتفظ هذا النزوع نحو الموازنة على الدوام بطابع متغير ومؤقت بما أنّ كل توازن كافٍ ، بهذا القدر أو ذاك بين البنى العقلية للفاعل والعالم الخارجي ، يؤدي إلى وضع يحوّل داخله سلوك الإنسان العالم ، ويجعل فيه هذا التحول من التوازن القديم غير كافٍ بحيث يولّد نزعة نحو موازنة جديدة سيتم تجاوزها بدورها فيما بعد .

وهكذا فإنّ الواقع الإنساني يتجلى بوصفه عمليات ذات وجهين : تفكك بنيات البنى القديمة وتركيب كليات جديدة قادرة على إيجاد ضروب من التوازن تستطيع الاستجابة للمتطلبات الجديدة للجماعات التي تعدّها"².

المنطلقات الأساسية للمقاربة الغولدمانية :

حصر غولدمان في كتابه "المنهجية في علم الاجتماع الأدبي" مبادئ مقارنته السوسولوجية في خمس نقاط أساسية هي³:

¹ - الفرطوسي ، عبد الهادي : تطور المناهج الاجتماعية في النقد الأدبي ، متاح على الشبكة .

² - غولدمان ، لوسيان : مقدمات في سوسولوجيا الرواية ، ص 229 .

³ - الفرطوسي ، عبد الهادي : تطور المناهج الاجتماعية في النقد الأدبي ، متاح على الشبكة .

1- العلاقة الجوهرية بين الحياة الاجتماعية والابداع الأدبي، تهم البنى الذهنية التي تنظم الوعي التجريبي لفئة اجتماعية معينة والكون التخيلي الذي يبدعه الكاتب .

2- إنّ البنى الذهنية ذات الدلالة ليست ظواهر فردية، وإنما هي ظواهر اجتماعية .

3- إنّ العلاقة بين وعي الجماعة والبنية المنظمة للعمل الأدبي متماثلة تماثلاً دقيقاً ، إلاّ أنها غالباً ما تشكل مجرد علاقة ذات دلالة .

4- إنّ البنى الذهنية (المقولاتية) هي ما يمنح العمل الأدبي وحدته .

5- إنّ البنى الذهنية المشار إليها غير واعية مماثلة لتلك التي تنتظم عمل البنى العضلية والعصبية ، لهذا فإنّ الكشف عنها متعذر على الدراسة الأدبية المحايثة، وعلى الدراسة المتجهة نحو البنيات الواعية للكاتب أو في علم نفس الأعماق ، ولا يتحقق إلاّ ببحث من النمط البنيوي والسوسيولوجي .

وتتطلب هذه المنهجية الدراسة على مستويين هما مستوى الفهم ومستوى التفسير، يأخذ الأول شكل دراسة محايدة للنص بحثاً عن الانسجام الداخلي له، وتقدّم الدراسة نموذجاً بنائياً دالاً يتألف من عدد محدود من العناصر والعلاقات القائمة بين هذه العناصر، آخذاً بالاعتبار كلّ النص ودون إضافة شيء إليه .

أما الثاني فيتولى ربط علاقة النص بحقيقة خارجة عنه، شرط أن تكون ذاتاً عبر-فردية جماعية، وبتعبير آخر إن مستوى التفسير يسعى إلى إدماج بنية النص في بنية أوسع، فيصبح ما كان تفسيراً للبنية الأولى تأويلاً للبنية الثانية الشاملة.

كما يذهب غولدمان إلى أنّ "المنهج البنيوي التكويني تظهر فاعليته خلال تطبيقه على الابداعات الثقافية الكبرى، لأنّ الذات المبدعة فيه تكون معبرة أكمل تعبير عن الفئة المنتمية إليها ، أو عن الطبقة الاجتماعية الواسعة

التي تمثّلها"¹. بينما يعتقد "أنّ المناهج السوسولوجية الأخرى تظهر فاعليتها عندما تتناول بالنقد الانتاج الأدبي المتوسط القيمة لأنه يستوحي حينئذ تجربته الواقعية المباشرة . وينتج عن هذا اعتقاده بأن الفئة الاجتماعية هي المبدعة الحقيقية لآثار الأدبية والفنية والفلسفية وما الكاتب أو الفنان أو الفيلسوف سوى وسائط تعبير أو عناصر من نسقٍ كلي هو الطبقة الاجتماعية"².

وبناءً على هذه الحيثية يصرّح غولدمان بأن هناك اختلافا كبيرا يفصل بين سوسولوجيا المضامين والسوسولوجيا البنيوية، "فالأولى ترى في المبدع انعكاسا للوعي الجمعي، أما الثانية فتري فيه على العكس أحد العناصر المقومة الأهم في هذا الوعي، العنصر الذي يسمح لأعضاء الجماعة بوعي ما يفكرونه ويشعرون به ويعملونه دون أن يعرفوا موضوعيا دلالاته"³.

وتقويما لمشروع القراءة وفق منهج البنيوية التكوينية للأعمال الأدبية أكدّ غولدمان "أنّ التفسير السوسولوجي هو أحد العناصر الأكثر أهمية في تحليل عمل فني ، مدققا بأنّ هذا التحليل لا يستنفذ النتاج ، وبأنّه لا ينجح في فهمه أحيانا ، معتبرا هذه القراءات للأعمال الأدبية والفكرية أساسية وسابقة على القراءات الأخرى، إلّا أنّ ما أنجزه من تحليلات وتطبيقات، على أهميته، لا يركي المشروع في طموحاته البعيدة و وإنما يجعله مشروعا مفتوحا قابلا للنقد والاضافات. وهذا الجانب هو ما حاول بعض الباحثين تعميقه ضمن المنهج الغولدماني"⁴، ولعل القراءة السياسية¹ التي قدمها جاك لينهارت- وهو تلميذ

¹ - خشفة ، محمد نديم : تأصيل النص- المنهج البنيوي لدى التكويني لوسيان غولدمان ، مركز الانماء الحضاري ، حلب - سوريا ، ط 1 ، 1997 ، ص 56 .

² - نفسه ، نفسها .

³ - غولدمان ، لوسيان : مقدمات في سوسولوجيا الرواية ، ص 234 .

⁴ - البنيوية التكوينية و النقد الأدبي ، ص 9 ، ص 42 .

غولدمان - لرواية الغيرة لـ (الآن روب غرييه) تعد واحدة من المحاولات التجريبية لإثبات مدى نجاعة المنهج البنوي التكويني في الكشف عن البنيات الدالة في النص و تحديد مستويات انتاج المعنى عبر أنماط من الرؤية للعالم ، وفي الآن نفسه هي نقد صريح له .

وعلى صعوبة هذا المنهج فقد حظي باهتمام الكثير من النقاد العرب الذين بذلوا جهودا نقدية جبارة لاحتواء مقولات هذا المنهج وتطبيقها على نصوص إبداعية متنوعة (رواية، قصة، قصيدة، مسرحية....)، بل وعلى أعمال ذات طابع نقدي/فكري. وقد تتبع آثار هذه الدراسات الباحث نور الدين صدار في مقال له بعنوان: (مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة)²، حيث صنفها إلى ثلاث مجموعات تناول في الصنف الأول القراءات التي قاربت النصوص الشعرية وهي (سوسيلوجيا الغزال العربي) للطاهر لبيب و(ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب - مقارنة بنيوية تكوينية) لمحمد بنيس ، ودراسة مختار حبار (شعر أبي مدين التلمساني - الرؤيا والتشكيل) .

أما في الصنف الثاني فقد أولى العناية فيه للقراءات التي قاربت النصوص الروائية والقصصية ، ويضم (المنتمي) لغالي شكري و(الرؤية والأداة) لعبد المحسن طه بدر و(الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي) لحميد لحميداني و(فضاء النص الروائي) لمحمد عزام و(الرواية العربية - واقع وآفاق) تأليف جماعي و(النص الأدبي من منظور اجتماعي) لمدحت الجيار

¹ - راجع : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، ص124 .

² - راجع : مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، المجلد

38 ، العدد 1 ، يوليو - سبتمبر 2009 ، ص 105 - 121 .

و(الموضوع والسرد) لسلمان كاصد و(النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية) لرفيق رضا صيداوي .

بينما جعل الصنف الثالث حكرا على القراءات التي قاربت الدراسات النقدية وهي : (محمد مندور وتنظير النقد العربي) لمحمد برادة و(سوسيولوجيا النقد العربي) لداود سلوم ، و(في معرفة النص) ليمنى العيد و(مقال مختار حبار الموسوم ب(المرجعية الكلامية لنظرية النظم عند الجرجاني) .

وقد حاول صدار في عرضه لهذه القراءات التركيز على مفهوم المنهج كما تمثلته كل قراءة وتمظهر فيها . ليخلص في الأخير إلى نتيجة مفادها "أنّ القراءات النقدية العربية المعاصرة التي تبنت المنهج البنيوي التكويني لم يكن استيعابها للمنهج متسا بالشمولية ، فضلا عن عدم التزامها بمفاهيمه الاجرائية وتعاطيها لنصوص مختلفة (...) وهي لا تخرج عن الإطار العام للفكر النقدي العربي في تعامله مع البنيوية التكوينية ومفاهيمها الإجرائية ، وهي قراءات تفاوتت بعضها عن بعض ، فمنها القراءات الوفية للنظرية البنيوية التكوينية (...) ، ومنها قراءات استعارت مقاربات أخرى قامت على التوفيق بينها وبين البنيوية التكوينية (...) ، وهناك صنف ثالث من القراءات اقتصر على توظيف مفاهيم إجرائية محدودة"¹.

وخلاصة القول :

"إنّ البنيوية التكوينية سعت إلى "إعادة الاعتبار للعمل الأدبي والفكري في خصوصيته من دون أن تفصله عن علائقه بالمجتمع والتاريخ وعن جدلية التفاعل الكامنة وراء استمرار الحياة وتجدها .

¹ - نفسه ، ص 120 .

مع المنهج البنوي التكويني لا يُلغى الفني لحساب الايديولوجي ، ولا يؤله باسم فرادة ممتعة عن التحليل"¹.

3- مدرسة فرانكفورت*

يحتل الفن والآداب مكانة بارزة في النظرة الاجتماعية لمدرسة فرانكفورت؛ حيث كان أعضاء هذه المدرسة ينظرون إلى النسق الاجتماعي -من منظور هيغلي- بوصفه وحدة شاملة ينعكس جوهرها الواحد في كل جوانبها المختلفة. كما نظروا إلى الفن والآداب على أنهما المجال الوحيد الذي يمكن فيه مقاومة هيمنة المجتمع الشمولي.

وكان تيودور أدورنو وهو من أبرز شخصيات هذه المدرسة يرفض نظرة لوكاتش الواقعية مؤكداً أنّ الآداب لا يتصل اتصالاً مباشراً بالواقع على نحو ما يفعل العقل، فتباعد الفن عن الواقع هو الذي يكسبه قوته ودلالته الخاصة، وإذا كانت كتابات الحداثة بوجه خاص تتباعد عن الواقع الذي تشير إليه، فإنّ هذا التباعد هو ما يمنح هذه الكتابات قوتها في نقد الواقع، وعلى حين أن أشكال الفن الجماهيري مضطرة إلى التواطؤ مع النسق الاقتصادي الذي يشكّلها، فإنّ الأعمال الطليعية تتميز بقدرتها على نفي الواقع الذي تشير إليه"². وما دور

¹ - غولدمان ، لوسيان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، ص 7 .

* - "اقتترنت هذه المدرسة بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي الذي مارس ما أطلق عليه اسم "النظرية النقدية " وهي شكل أرحب من التحليل الاجتماعي يتضمن عناصر ماركسية وفرويدية ، وكان أبرز شخصيات هذه المدرسة في الفلسفة وعلم الجمال وهم ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو وهربرت ماكيز. وقد أغلق معهد البحث الاجتماعي عام 1933 وانتقل إلى نيويورك التي استقرّ فيها إلى أن عاد إلى فرانكفورت عام 1950 بإشراف أدورنو وهوركهايمر." - راجع : سلدن ، رمان : النظرية الأدبية المعاصرة ، ص 61 .

² - النظرية الأدبية المعاصرة ، ص 62 .

الفن من منظور أودرنو داخل النسق الاجتماعي إلا إثارة نوع غير مباشر من المعرفة لأن الفن (هو المعرفة النافية للعلم الفعلي) ، ولا يحقق الفن هذا الدور المناط به - في رأيه- إلا بكتابة نصوص تجريبية صعبة ، وليس بكتابة أعمال نقدية أو أخلاقية¹ .

أما هوكهايمر فيذهب إلى أنّ الجماهير ترفض أدب الطليعة لأنّه يعكر من صفو إذعانها الغافل، الآلي، لوضع الاستغلال الذي يمارسه عليه النسق الاجتماعي، مؤكداً أنّ العمل الفني إذ يتيح للبشر المسحوقين صدمة الوعي بوضعهم اليائس، فهو ينادي في الوقت نفسه بتلك الحرية التي تجعلهم يثورون غضباً. وأنّ ما يقوم كتاب الحداثة هو تمزيق صورة الحياة الحديثة وتفتيتها، بدلا من السيطرة على آلياتها اللانسانية، فما يقوم به مارسيل بروست مثلا من استخدام للمنولوج الداخلي لا يعكس نزعة فردية مغتربة فحسب بل يفضي إلى الكشف عن حقيقة كانت مغمورة في كيان المجتمع الحديث(هي اغتراب الفرد)، كما يساعد على رؤية الاغتراب بوصفه جزءا من واقع اجتماعي موضوعي². وعلى ذات الدرب يسير أودرنو مسائلا "الطرائق التي يستخدم بها صمويل بيكيت الشكل ليصوّر خواء الثقافة الحديثة وليكشف لنا عن أننا -رغم كوارث تاريخ القرن العشرين وانحلاله- نصرّ على التصرف كما لو كان شيء لم يتغير. فنحن نلحّ على إيماننا الأحق بالمسلمات القديمة عن وحدة الفرد وجوهريته أو وجود معنى في اللغة، وكذلك تقدّم مسرحية بيكيت شخصيات لا تملك إلاّ القشور الجوفاء للفردية، والقوالب المفتتة للغة. ومن هنا فإنّ الانقطاعات اللامعقولة في الخطاب والتشخيص المختزل والافتقار إلى الحبكة،

¹- نفسه ، نفسها .

²- نفسه ، نفسها .

كل ذلك يسهم في تحقيق التأثير الجمالي المؤدي إلى تباعد الواقع الذي تشير إليه المسرحية. وبذلك تقدم إلينا معرفة نافية للوجود الحديث¹.

وخلاصة القول أن هناك تحولات كبرى في الطروحات التي حاولت أن تؤسس لعلم اجتماع المضامين وغايتها جميعا تقديم نقد اجتماعي للنصوص من خلال:

-الوقوف على علاقة النتائج بالمجتمع الذي ينسب إليه.

-إبراز كيفية تحول الواقعة الاجتماعية، بجهود المبدع، إلى عمل من اللغة والخيال.

4- بيارزيمما وسوسولوجيا النص

لم تتوقف الطروحات عند حد المقاربات السالفة بل أدت التحولات الكبرى لها إلى بروز اتجاه نقدي جديد على يد الناقد التشيكي الأصل بيارزيمما أطلق عليه (سوسولوجيا النص الأدبي)، مهمته في نظر زيمما "معرفة كيف تتجسد القضايا الاجتماعية والمصالح الجماعية في المستويات الدلالية والتركيبية والسردية كما يستهدف المنهج البنوي اللغوية (الخطابية) للنصوص النظرية والأيدولوجية أو غيرها. وينزع في مجال القراءة إلى إقامة علاقة بين البنوي النصية وظروف إنتاجها مع النصوص الشارحة المختلفة لدى القراء. وتأسيسا على ذلك يبدو المنهج أكثر التصاقا بالمستوى اللغوي للنص الأدبي، ولكنه في الوقت نفسه أكثر إلحاحا على رصد التفاعلات الاجتماعية والأيدولوجية².

وقد بدا زيمما وهو يؤسس لهذا المنهج الجديد حريصا على الاستفادة من مناهج كثيرة مثل السيمولوجيا، البنوية، التحليل النفسي، نظرية القراءة، مدرسة

¹ - نفسه ، ص 62- 63 .

² - شعلان ، عبد الوهاب : المنهج الاجتماعي وتحولاته ، ص. 104

فرانكفورت، كما لم يتخل عن التراث الجدلي الهيجلي الماركسي وإضافاته (لوكاتش وغولدمان) في التأسيس لمنطلقات منهجه النظرية، مستبعدا بالكلية نظرية الانعكاس، مطورا بعض المفاهيم الغولدمانية خاصة منها البنية الدالة والرؤية الكونية، بل ومستعيرا الكرنفال الباختييني جاعلا إياه أداة إجرائية في التحليل تفضي إلى موقف ورؤيا خاصة بالسارد عكس ما كان عند باختين الذي كان يعدّه قيمة جمالية تسم الرواية بالحوارية. كما سعى في تحليله للنصوص السردية إلى التأكيد على جملة من مشكلات الفكر الوجودي باعتبارها مشكلات اجتماعية - لسانية ونصية منها أزمة اللغة في المجتمع المعاصر وحضورها في النص كأزمة كلام وتفكك الخطاب السردية وعلاقته بالتطورات الاجتماعية اللغوية مؤكدا على ارتباط أزمة السرد بأزمة اللغة¹.

- ينظر: نفسه ، ص ص 104 - 125 . و:

- خشفة ، محمد نديم : تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى التكويني لوسيان غولدمان ، مركز الانماء الحضاري ، حلب - سوريا ، ط 1 ، 1997 ، ص 56 .

- نفسه ، نفسها .

- غولدمان ، لوسيان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، ص 234 .

- البنيوية التكوينية و النقد الأدبي ، ص 9 ، ص 42 .

- راجع : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، ص 124 .

- راجع : مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، المجلد

38 ، العدد 1 ، يوليو - سبتمبر 2009 ، ص ص 105 - 121 .

- نفسه ، ص 120 .

- غولدمان ، لوسيان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، ص 7 .

- "اقتربت هذه المدرسة بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي الذي مارس ما أطلق عليه اسم "النظرية النقدية " وهي شكل أرحب من التحليل الاجتماعي يتضمن عناصر ماركسية وفرويدية ، وكان أبرز شخصيات هذه المدرسة في الفلسفة وعلم الجمال وهم ماكس

وعلى العموم فقد تجاوز زيمًا بمنهجه هذا سوسولوجيا الأدب بأبعادها الوضعية والماركسية والامبريقية ليبنى صرحًا نقديًا خصيبًا يزوج فيه بين معظم الأسس النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت وبين المفاهيم السيميائية التي اشتغل عليها وغايتها القصوى التأكيد على أنّ البناء الجمالي للنص هو منبع القضايا والإشكاليات الواقعية.

وفي ختام هذه الدراسة التي توخينا فيها الوقوف على أهم المنطلقات والرؤى التي نظرت لسوسولوجيا الأدب لا يسعنا إلا أن نؤكد على أنّ غاية سوسولوجيا الأدب على اختلاف مشاربها ليست هي الحصول على التحليل الفني للأعمال الإبداعية، وتفسير العمليات التاريخية والاجتماعية التي أطرتها فحسب، بل هي البحث عن المسار التاريخي والاجتماعي الذي صورته الذات المبدعة، أي البحث عن الجوهر من خلال محاولة العثور على الطريق التي بها تمّ التعبير عن الواقع التاريخي والاجتماعي، عبر الحساسية الفردية للمبدع في العمل الأدبي أو الفني المدروس. وهذا يعني البحث عن الإنسان في لحظة معينة من لحظات تطوره هذا أولاً.

هوركهايمر وتيودور أدورنو وهربرت ماكيز. وقد أغلق معهد البحث الاجتماعي عام 1933 وانتقل إلى نيويورك التي استقرّ فيها إلى أن عاد إلى فرانكفورت عام 1950 بإشراف أدورنو وهوركهايمر. - راجع: سلدن، رمان: النظرية الأدبية المعاصرة، ص 61.

- النظرية الأدبية المعاصرة، ص 62.

- نفسه، نفسها.

- نفسه، ص 62-63. ¹- نفسه، نفسها.

- شعلان، عبد الوهاب: المنهج الاجتماعي وتحولاته، ص. 104.

- نفسه، ص 104-125.

ثانيا: شكّل الخيال في المؤلفات الأدبية عائقا ابستيمولوجيا يعترض عالم الاجتماع أثناء تفسيره السوسولوجي للأعمال الأدبية، وهو ما دعا إلى القول بالأساس الواقعي للتصوير الخيالي مهما كان تجريديا.

ثالثا: بقراءة مسحية سريعة لمؤلفات أدبية قديمة (مقامات بديع الزمان الهمذاني، كتاب كليلة ودمنة، بخلاء الجاحظ.... وغيرها) نسجّل إبداعية النص الأدبي في احتضان الكثير من القيم والأمراض الاجتماعية ومعالجتها معالجة بناءة عبر العصور الأدبية المختلفة.

رابعا: أثبتت القراءات المتنوعة للنصوص الأدبية المختلفة من قبل نقاد المناهج السوسولوجية قدرة هذه النصوص ومبدعيها على فضح المسكوت عنه ومقارنته بأشكال متباينة تنمُّ عن فنية عالية تخترنها الذات المبدعة في عمليات التمويه.

خامسا: مهما كانت الأعمال الأدبية تنهل من منهل الخيال الخصيب فإنها حاملة بشكل أو آخر لمضمون سوسولوجي يقوي انتماءها للمجتمع الذي تولد فيه .

سادسا: هناك علاقة وطيدة بين التطور التاريخي وتطور الأجناس الأدبية وقد أثبتت ذلك عملية التتبع والاستقراء.

وجملة ما نختم به هذه المداخلة أنّه على الرغم من اختلاف المقاربات التي تناولت النصوص الإبداعية بالدرس والتحليل للكشف عن المضمون الاجتماعي فيها إلاّ أنها تتفق جميعا على أنّ الأدب بوابة عبّرها يمكن قراءة تضاريس المجتمع الذي نشأ فيه.